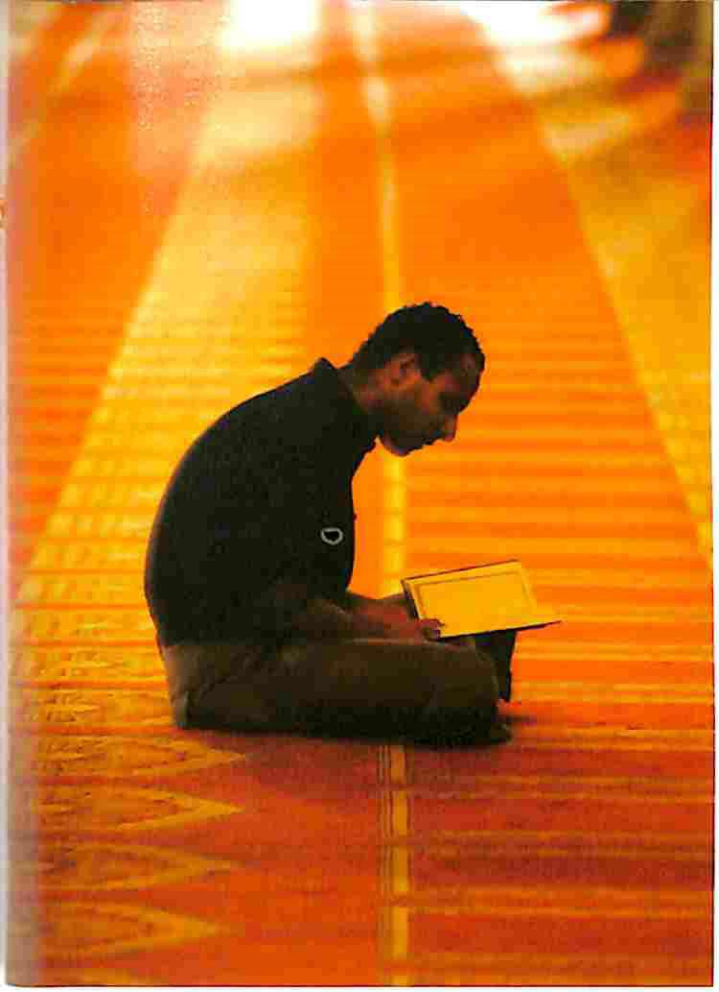

خير الله الشريف - سورية

اختيار

اكتبْ ومزِّقْ.. اكتب في الجوّال وامحُ.. هذا هو الصواب؟ ما أشد ضيق الدنيا! وما أشد خواء القلوب من العاطفة الإنسانية!...

(وانفضِ الكَفّين من قوم زَبَدْ)..

كنت مرتاحاً إذ نطقت بهذا الشطر من الشعر، هيئ لك أنك من المعانين في هذه الدنيا، فإذا أنت اليوم تترحم على تلك الأيام التي تزعم ـــ وزعمك صحيح ـــ أنها حالكة، وأن الصبر والاحتساب كانا من حلفائك فيها ...

اكتب ما يجيش في صدرك، خفف قليلاً جداً عن نفسك، صُغ العبارات التي ردفها التعبير والمعاناة، ألا يقولون: التجربة؟ هذه هي التجربة.. ألا يقولون: الصدق؟ هذا هو..ماذا فعلت بك التجربة؟ لقد كوتك بنارها، كم أسأت أيها الفتى إلى نفسك ودينك! ألم تكن مستقراً ظاهراً؟ ألم ينعكس هذا الاستقرار الظاهري خيراً عميماً عليك؟ كان لديك الطموح، والدافع في الحياة، والثقة بالنفس، والصحبة،والطمأنينة، وقوة الإيمان، والقدرة على المتابعة، والوقوف بعد العثرة.. فقدت الثقة، والرغبة في الحياة، والاستقرار والطمأنينة، والألفة بالأصحاب، والقدرة على النهوض من جديد..

أتاك هذا لأسباب تافهة، وحقك أن تفرح لما جرى، وأن تحمد الله على ما أعانك، وأنقذك من آفة كدت تغرق فيها.. لقد منّ الله عليك مرات كثيرة، وما أنت فيه آخر هذه المرات، سول لك الشيطان ـــ لعنه الله- وما زال يسوّل أنك خسرت خسارة كبرى، وأنت الرابح- ولله الحمد. لقد ضيق صدرك، فأعطاك شعوراً أنك فقدت نفيساً، فلمت نفسك، وكان حقك أن تهنّأ بما جرى، وقرّعك لإعراضك عن المعصية، وأنساك أنك مطوق بنعم الله، وإعراضك الأخير عن المعصية أحد هذه النعم الغالية، لقد خلصك الله بما أسلفت من صدق وإخلاص لله من خضراء بيضاء لها طلاوة، تخفي في طياتها سماً زعافاً، ما أحرى من ذاقه ورضي بتذوقه والتمتع بحلاوته أن تتقطع أمعاؤه لاحقاً، ويكابد الألم قبل أن تزهق نفسه!...

حالك الذي تصف ألم ممض، وضيق مقض، وندم يعض!.. أنت الآن في بئر مظلمة -تزعم - ملقى فيها، عالي النحيب، وما من مجيب.. تقول في نفسك: أين الناس؟ هل من معين؟ نسيت يا مسكين أن لا ملجأ من الله إلا إليه!.. استدبرت قول الله: ﴿..وإن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ..﴾ هذا حالك يا إنسان! ترى أرنبة أنفك فقط، مسّكَ الشّرّ ظاهراً، وهو عين الخير، فقدت- بزعمك - حبيبة خُيّل إليك أن الزمان لا يجود بمثلها، عميت عن كل نقائصها، وما أكثرها، تعلقت بها تعلق الوليد بلعبة سرعان ما تتكسر، تحمل في ثنايا حركاتها وأصواتها خطراً جاثماً وضرراً داهماً، ما أشبهها بأفعى! ..

لانت ملامسها وفي أنيابها العطب!

تركت حبل نفسك على غاربه.. تغاضيت للأمّارة بالسوء عن بعض متعها بزعم أنك قادر على العودة متى شئت! وكنت كلما تغاضيت - وأنت واثق من إنهاء التغاضي متى شئت - زاد الندم الذي سيأكلك رصيداً.. هذا الندم القبيح الاحتمال ذو مظهرين: ندم على المعصية، وندم على فقدان متعتها، إنه صراع أضداد، كادت الغلبة فيه أن تكون للشيطان - محقه الله- لولا نعمة أخرى ودعوة صادقة أضافها الله بمنّه وكرمه الذي لا يحصى وفضله الذي لا يستقصى، فطمرك بها في سابق علمه..

حالك الحقيقي أنك عدت إلى زوجك وبناتك بعد أن سرقت تلك رعايتهن دون وجه حق، الوقت والمال والجهد من حقهن وحدهن، سطت تلك على هذا الحق بأنانية واستئثار وسوء خلق.. لو تم زواج بينكما أول الأمر لاقتضى العدل قسمة الوقت والمال والجهد، ولكنها لم تكن تريد الزواج وإنما استحواذ الوقت والمال والجهد.

حالك الحقيقي ابتعاد كبير جداً جداً جداً عن اقتراف الفاحشة، بل استحالتها، بعد أن كدت تركن إليها باقترابك منها..

حالك الحقيقي خلاص من امرأة خبيثة في مقاييس كثيرة، ما كان أشد غبنك لو تزوجتها! بعض صفاتها التصنع والمداهنة أو قل: الكذب، وبعضها يأتي من وراء حجابها المزعوم الذي يخفي استخفافاً بالشرع وعزوفاً عن تطبيق الأحكام، وجهلاً بكثير من مسلمات الإسلام، ومن يلام في هذا؟! هي أولاً ثم بيئة لعائلة من العوائل التي ضربت العنجهية والإلحاد والسفه أطنابها في مضاربها، وكاد الدين يختفي من ساحاتها، فلم يكد يحتفظ إلا ببعض المظاهر القليلة المتهالكة.. ربُّ تلك العائلة ضرب طبل الخواء فأرقص عائلته ومنها تلك.. وبعض صفاتها إعجابها برأيها، أو قل: التعالي، وبعضها الهزء وقلة الاحترام، أو قل: قلة الأدب، وبعضها الجدل المقيت العقيم..

حالك الحقيقي التهيؤ للعودة إلى القرآن والمسجد بعد أن قطعتك عنهما تلك، والبدء بالدراسة بعد أن استنفدت تلك الوقت والجهد لنفسها، وإنفاذ دعوات بطلب الرزق. كم طلبتها على ثقة من إجابة الكريم لها! علقها عن الإجابة جثوم تلك الخبيثة على كبدك.. كل ما سبق أمر واقع، ولكن هل كان الصواب في استمرار العلاقة مع كل الأضرار التي كانت ستلحق بك؟ جواب العقل والمنطق: لا، أما الجواب الآخر فهو أن تحكيم المنطق أثخن جراحك منذ أربعة أشهر في معاناة وصراع لا يحتمل. لم يعوّض حجم العاطفة المطلوبة لك والإنسانية والاهتمام، أرجعت إعادة الجسور بينك وبين زوجتك قسماً من العاطفة والاهتمام الضروريين، وبقي نصف العاطفة فارغاً ينتظر الإملاء.. لم يتغير في الزوجة الأولى ما دعاك إلى طلب الزوجة الثانية! وصار طلب الثانية أوجب وأشد ضرورة بعدما حصل.. صار طلبها علاجاً لسقم نفسي واضطراب عاطفي، ولم يصادف هذا الاضطراب العاطفي فهماً أو عقلاً من الزوجة الأولى، ولكنه صادف قصوراً وأنانية!.. وفي انتظار الحل: اهربْ من هذا الواقع الأليم!..■